رأى فى ترتيب المعجم

العربى الحديث

[كتب هذا المقال أديب العراق وفقيد العالم العربى المغفور له الأستاذ طه الراوى وأراد أن يخص به مجلة «الكاتب المصرى» فأعجلته المنية عن إرساله إلينا. وتفضل ابنه الأستاذ هاشم الراوى فأرسله إلينا بعد وفاة والده الكريم، فكان وصوله إلينا تجديدا للأسى فى نفوس لم تعز بعد وهيهات أن يدركها العزاء.

ونحن ننشر هذا المقال راجين لفقيد العظيم رحمة واسعة ولأسرته ووطنه العراق وأمته العربية صبرا جميلا.]

لما شعر علماء العربية الأولون بدبيب اللحن فى اللغة الحضرية المعربة، بسبب اختلاط بنيها بحمراء الأمم وصفرائها، فزعوا إلى جمعها وتدوينها وضبط مشكلها وإيضاح مبهمها، وسلكوا إلى ذلك طريقين :

الأول — يبتدئ باللفظ و ينتهى بالمعنى.

الثانى — يبتدئ بالمعنى و ينتهى باللفظ.

مثال الأول قولهم : القطار عدد من الإبل مقطورة على نسق واحد. والقطر (بكسر القاف) النحاس، والقطر (بضم القاف) الجهة والناحية، والقطر (بفتح القاف) المطر. ومثال الثانى قولهم : ولد الناقة يسمى الحوار، وولد الفرس يسمى الفلو. وثمر النخلة عندما يصفر أو يحمر يسمى البسر، فاذا نضج فهو الرطب، فاذا تم جفافه فهو التمر... الخ.

والطريق الأول يسهل على القارئ فهم ما يمر أمام نظره وعلى سمعه من الألفاظ المبهمة : فان من قرأ أو سمع كلاماً مشتملاً على ألفاظ استبهم عليه معناها رجع إلى معجم مؤلف على هذه الطريقة.

والطريق الثانى يسهل على الكاتب وغيره معرفة الألفاظ الدالة على الأشياء التى تقع تحت نظره والمعانى التى تمر بذهنه ولا يحضره اللفظ الدال عليها . فاذا رأى الانسان شيئاً أو تصور معنى ولم يعرف اللفظ الدال عليهما فانه يرجع إلى الكتب المؤلفة على هذه الطريقة . ومن ثم نجد أكثر الناس انتفاعاً بهذه الكتب أولئك الذين يعنون بالترجمة إلى العربية والتأليف فى العلوم العصرية ؛ لأنهم يجدون أمامهم من المعانى ما تحتاج إلى قوالب من الألفاظ لا تحضرهم،فيرجعون إلى هذه الكتب ليهتدوا بها إلى بغيتهم . وقد رأينا أن نسمى الطريق الأول « بالطريق اللفظى » لأن البدء فيه يكون بجانب اللفظ ومنه ينتقل إلى جهة المعنى ، والطريق الثانى « بالطريق المعنوى » لأن البدء فيه يكون بجانب المعنى ومنه ينتقل إلى جهة اللفظ .

ولكل من الطريقين فروع ليس هذا موضع الافاضة فى استقصائها . وكل ما نريد أن نذكره هنا أن الطريق المعنوى هو الطريق الذى مشى عليه رجال الصدر الأول من نقلة اللغة ، فألفوا فى ضروب من المعانى مثل خلق الانسان وخلق الفرس والأنواء والنبات والنخل والكرم إلى غير ذلك من الأنواع . أما التأليف على الطريقة اللفظية فقد كان متأخراً فى الزمان عن التأليف فى الطريقة المعنوية . ويعتبر الخليل ابن أحمد الفراهيدى بن بجدة هذا الطريق حين وضع كتاب«العين» أو وضع خطوطه الأساسية على بعض الأقوال ؛ فقد وجه همه إلى ضبط اللغة وإحصاء كلها والتمييز بين المهمل والمستعمل من الألفاظ ، وتبعه أبو بكر بن دريد فى جمهرته ، ولكنه لم يتقيد بما تقيد به الخليل من الشروط الدقيقة والقيود الوثيقة معتذراً بقصور همم أهل زمانه وضعف عزائمهم وعدم صبرهم على المجاهدة والمجالدة . وقد حذا حذو هذين الامامين إمام ثالث هو أبو غالب تمام بن غالب المعروف بابن التيانى القرطبى المتوفى سنة ٤٣٣ هـ فانه وضع كتاباً أتى فيه على ما فى كتاب العين من صحيح اللغة وزاد عليه ما زاده ابن دريد فى الجمهرة وسماه « فتح العين » . وآخر من سلك هذا المسلك فى التأليف — على ما نظن — أبو الحسن على بن إسماعيل المعروف بابن سيده المتوفى سنة ٤٥٨ هـ فانه ألف كتابه « المحكم والمحيط الأعظم » . ومن أصحاب الطريق اللفظى من سلك فى تأليفه مسلكاً آخر غير مسلك الخليل ومن تبعه ، فرتب الألفاظ معتبراً أواخر حروفها الأصلية أبواباً وأوائلها فصولاً ، ومن أشهر سالكى

هذا المذهب الجوهرى فى كتابه «صحاح اللغة»، وتبعه مجد الدين الشيرازى فى قاموسه، وتبعهما خلق كثير. ومن أصحاب الطريق اللفظى من تنكب هذين المسلكين وسلك مسلكاً ثالثاً هو أوضح معالم من سابقيه، فبوب معجمه على ترتيب حروف الهجاء، واعتبر أصول أوائل الكلم أبواباً وما يليها من الحروف الأصلية ثم ما يتلوهما فصولا، فتجد كلمة «أسد» مثلا قبل كلمة «أسر»، وهذه قبل كلمة «أسف»، وهذه كلها قبل كلمة «أشر». وأول من سلك هذا المسلك فى الترتيب — على ما أظن — أبو الحسين أحمد بن فارس المتوفى سنة ٣٩٠ﻫ فى كتابه «المجمل فى اللغة»، وتبعه الزمخشرى فى كتابه «أساس البلاغة»، وجاء بعده تلميذه ناصر بن عبد السيد المطرزى المتوفى سنة ٦١٠ﻫ فألف كتابه «المغرب فى لغة الفقهيات»، وسلك فى ترتيبه مسلك شيخه فى أساس البلاغة. وممن سلك هذا المسلك أحمد بن محمد المقرى الفيومى المتوفى سنة ٧٧٠ﻫ فى كتابه «المصباح المنير فى غريب الشرح الكبير». وكذلك سلك هذا المسلك من مؤلفى المعاجم الخاصة أبو السعادات ابن الأثير فى كتابه «النهاية فى غريب الحديث والأثر». وكذلك فعل الراغب الأصفهانى فى مفرداته. وأتباع هذا المسلك كثيرون فى المعاجم العامة والخاصة، منهم المؤلفون من المعاصرين. والمؤلفون على هذا النمط يعتبرون من الكلمة حروفها الأصلية، فيضعون كلمة اتصل — مثلا — فى باب الواو لأنها من مادة (و ص ل) ومثلها اتأد واتسع واتكأ واتسق واتهم واتكل لأنها من (و أ د) و (و س ع) و (و ك أ) و (و س ق) و (و ه م) و (و ك ل). ويضعون كلمة تترى — مثلا — فى هذا الباب لأن مادتها (و ت ر). وفى هذا ما فيه من العسر على الذين لا علم لهم بمبادئ اللغة وأصول تصريفها.

ولهذا رأى بعضهم أن توضع المعاجم على أسلوب تكون العبرة فيه بحروف الكلمة كلها سواء فى ذلك الأصلية والزائدة، فتوضع كلمة (تترى) مثلا فى باب التاء والتاء وما يتلوهما، وكلمة (اتقى) فى باب الهمزة والتاء وما يتلوهما، وهكذا كما فعل واضعو معاجم البلدان؛ فانك إذا راجعت معجم ياقوت فى كلمة (أسورة) مثلا تجدها فى باب الهمزة والسين وما يليهما، وإذا طلبت هذه الكلمة فى الصحاح وجدتها فى فصل السين من باب الراء، وإذا طلبتها فى المصباح وجدتها فى باب السين والواو وما يتلوهما. قالوا: وفى هذا عنت ليس بالهين.

وقد سلك واضعو معاجم الأسماء والطبقات مسلك واضعى معاجم البلدان ؛ فانك تجد فيها اسم (المعلى) مثلا فى باب الميم والعين وما يليهما ، ولو طلبت هذه اللفظة فى القاموس لوجدتها فى فصل العين من باب الواو والياء ، وإذا طلبتها فى المصباح وجدتها فى باب العين واللام وما يثلثهما . قالوا : فلماذا لا يسلك اللغويون فى معاجمهم هذا المسلك على ما فيه من تسهيل المراجعة ولا سيما على أولئك الذين يتعسر عليهم تمييز أصول الكلمات من زوائدها ؟

ونحن نرى أن هذا الرأى على ما فيه من ظاهر جذاب ، غير سديد ؛ لأننا لو سلكنا فى وضع معاجم اللغة هذا المسلك لجاءت ضخمة جداً كثيرة التكرار مضطربة الترتيب والتبويب ؛ وذلك لما فى لغتنا العزيزة من الوفرة فى المشتقات والتنوع فى المصادر والجموع ؛ فاذا أردنا أن نأخذ مثالا على ذلك ما اشتق من مادة (خرج) وما يتصل بها كان علينا أن نثبت كل واحدة من الكلمات الآتية فى موضع يختلف عن موضع أخواتها :(خرج ، يخرج ، خرجاً ، مخرجاً ، مخارج ، خارج ، خراج ، خوارج ، أخرج ، إخراج ، استخرج ، يستخرج ، استخراج ، المستخرج ، أخاريج . . . الخ) . وكل كلمة تذكر فى موضع تحتاج إلى تفسير قائم بنفسه ، وفى هذا ما فيه من التطويل الذى لا طائل تحته ؛ وكذلك القول فى المصادر ، فرب فعل له أكثر من مصدر واحد ، مثل (كتب ، ومصادره كتباً وكتاباً وكتابة وكتبة) فاذا أخذنا بهذا الترتيب المقترح وجب علينا أن نفرق هذه المصادر فى مواضع شتى مع أنها فى الترتيب التقليدى تجمع فى موضع واحد . وكذلك القول فى الجموع ، فرب كلمة لها عدة جموع مثل (كاتب فانك تجمعه على كتبة وكتاب وكاتبين) ، فاذا نحن مشينا على الترتيب المقترح وجب علينا أن نفرق بين هذه الجموع فى مواضع مختلفة مع أن جمعها فى موضع واحد ألصق بحاجة المراجعين من تفريقها على مواضع شتى وتفسيرها فى كل موضع . ولنضرب للقارئ مثلا واضحاً فى هذا الباب ؛ فانك إذا راجعت كلمة (أكمة) مثلا فى المصباح المنير وجدتها فى فصل الهمزة والكاف وما يثلثهما على هذا الوجه :

« الأكمة تل وقيل شرفة كالرابية ، وهو ما اجتمع من الحجارة فى مكان واحد ، وربما غلظ ، وربما لم يغلظ ، والجمع أكم وأكمات مثل قصبة وقصب وقصبات ، وجمع الأكم إكام مثل جبل وجبال ، وجمع الإكام أكم بضمتين مثل : كتاب وكتب ، وجمع الأكم آكام مثل عنق

وأعناق . . . » هذه هى طريقة المعاجم التقليدية ، وإذا أردنا أن نتبع منهج المعجم المقترح وجب علينا أن نفرق هذه الجموع الخمسة فى خمسة مواضع ، وأن نذكر فى كل موضع شرحاً على نمط الشرح الذى جاء فى عبارة المصباح فى كلمة (أكمة) ، فنقول مثلا فى كلمة (آكام) : «إنها جمع أكم التى هى جمع الإكام التى هى جمع الأكم التى هى جمع الأكمة وهى تل وقيل شرفة كالرابية وهو ما اجتمع من الحجارة فى مكان واحد ، وربما غلظ وربما لم يغلظ » . وهكذا يلزمنا فى كل جمع أن نرجع به إلى مفرده ثم نشرح معنى ذلك المفرد ، وفى هذا ما فيه من إسراف فى الجهد يمكن الاستغناء عنه بالطريقة المألوفة المبنية على الاقتصاد فى كل شئ . أما القول بأن الكثيرين من الذين يحتاجون إلى مراجعة المعاجم لايهتدون إلى أصل الكلمة فهو من المغالاة بمكان ؛ لأن الذى لا يميز بين الأصول والزيادات ولو على سبيل الاجمال لا يحتاج إلى مراجعة المعاجم ، فالمعاجم إنما توضع لأولئك الذين يملكون حظاً ولو قليلا من التفريق بين الأصول والزوائد ؛ أما الكلمات التى يتعسر على جمهرة المتعلمين معرفة أصولها فلا مانع أن تذكر فى موضع يسهل على المراجع العثور عليها ثم يشار إلى موضعها الأصلى ، فتوضع كلمة (تترى) مثلا فى موضع تأتى فيه التاء والتاء وما يتلوهما ثم يشار إلى مراجعتها فى مادة (وتر) ، وكذلك يفعل فى كلمة (اتصل) من الوصل و (اتعد) من الوعد وهكذا .

والذى نراه أن العربية محتاجة إلى معاجم تؤلف على الطريقة اللفظية على أنماط ثلاثة : مبسوط ووسيط وموجز : الأول للمتبحرين من العلماء ، والثانى لأوساط المتعلمين ، والثالث للمبتدئين منهم . وكذلك هى فى حاجة إلى معاجم على الطريقة المعنوية مبسوطة ومتوسطة وموجزة ، ليستعين بها الناقلون عن اللغات الأجنبية والمؤلفون فى العلوم والفنون العصرية . وينبغى أن تبسط العبارة فى كل هذه المعاجم بسطاً يوضح المقصود من كل كلمة ، وأن يستعان على الإيضاح بالصور ، فاذا أريد إيضاح أعضاء الانسان فى المعاجم المعنوية مثلا يصور الانسان و يشار إلى العضو إشارة تجعله مفهوماً جليا ، وكذلك إذا أريد بيان ... الفرس و خلق الجمل مثلا ؛ وهكذا يستعان بتصوير الأشجار والأزهار والبقول وغيرها تصويراً من شأنه أن يعين المراجع إعانة تامة على فهم ... فهماً لا غموض فيه ولا غبار عليه .

ولا شك أن هذه الطريقة تستلزم جهوداً متضافرة من جماعات متآزرة . وأجدر من يعهد إليه بذلك هى المجامع اللغوية التى أنشئت وستنشأ فى الممالك العربية ؛ وقد بلغنا أن المجمع اللغوى فى الكنانة مضطلع ببعض هذه المهمة . كان التوفيق حليفه .

طه الراوى